# الشكل والمضمون في التركيب اللغوي

الدكتور عبد الرحمن ايوب

سعدت أخيرا بالقاء نظرة سريعة على السفر القيم الذي الفه الدكتـور مهدي المخزومي بعنوان « في النحو العربي » وقرأت ما ورد فيه من تعليقات حول بعض المناقشات التي وردت في كتابي « دراسات نقـدية في النحـو العربي » • وانا اذ أشكر للاستاذ مجهوده وعنايته أرجو أن ابدي بعض الملاحظات على تعليقاته هذه راجيا ان اتمكن في المستقبل القريب من ابداء رأي كامل حول الكتاب كله •

وقد دارت مناقشات الدكتور في أغلبها حول ما ذكرته عن الاستاذ الضبلي • وهو يرى ان فاعل الجملة الفعلية « يشمل الفاعل الذي يفعـل الفعل ويحدثه والفاعل الذي يقوم بالفعل ويتسلمه من الفاعل الحقيقي »(١) • ورغم اني أجد بعض الصعوبة في ادراك ما يريد بالفعل « الذي يقدم بالفعل ويتسلمه من الفاعل الحقيقي »(٢) فاني أخالف الدكتور في الاعتماد على الادلة الفلسفية واتخاذها أساسا لتحليل التركيبات اللغوية •

وعندي ان أي ظرف كلامي يتضمن أمرين مختلفين كل الاختلاف هما الواقع الخارجي والتعبير اللغوي • وقد يكون الواقع الخارجي حدثا صادرا من شخص أو واقعا على شخص أما التعبير اللغوي فهو تركيب مكون من كلمات • ومن الطبيعي أن تكون دراستنا للواقـع الخارجي معتمـدة على ما يتضمنه هذا الواقع من حدث ومحدث أو حدث ومتأثر بالحدث ، أما التركيب اللغوي فانه بالرغم من ارتباطه الرمزي بالحدث وما تعلق بـه من دوات — أي بالواقع الخارجي — لا يمكن أن يوصف الا باعتباره كلمات ذات مواضع معينة داخل التركيب وذات صفات مادية معينة تتمثل في وجود حركة ما أو سابقة (Prefix) أو لاحقة (Suffix) بعينها أو في اداء الجملة كلها أو جزء من اجزائها بنغمة خاصة (Tone) أو ايقاع النبر (Stres) على مقطع من مقاطعها •

وقد يكون بين هذه الصفات المادية ما نلاحظ اضطراد وجوده أو عدمه مع وجود علاقة بين الكلمات التي يتكون منها التركيب أو مع انعدامها • وفي هذه الحالة يقال بأن هذه الصفة علامة تركيبية لهذه العلاقة • ولنوضح هذا بالمثال •

اذا قارنا الجملتين « ضرب محمد » و « ضرب محمد » لاحظنا وجود تماثل تام في نوع الالفاظ التي تتكونان منها من ناحية الوضع في التركيب ومن ناحية الحركة التي ينتهي بها كل من « محمد » و « ضرب » . والخلاف الوحيد بين المثالين هو صيغة « ضرب » في الاولى و « ضرب » في الثانية . هذا الاختلاف صفة شكلية ولا شك ، يقابلها نوع العلاقة القائمة بين الفعل والاسم في كل من المثالين .

وفي المثالين « ضرب محمد » و « ضرب محمدا » نلاحظ كذلك التماثل التام بينهما فيما عدا الحركة الاخيرة في « محمد » وهي الضمة والتنوين في الجملة الاولى والفتحة والتنوين في الجملة الثانية . وهذه الصفة المادية يقابل كذلك نوع العلاقة القائمة بين الفعل والاسم في كل من المثالين .

والعلاقة بين أجزاء الجملة لا تعني بالضرورة دلالة فلسفية مثل قيام الذات بايقاع الحدث أو وقوع الحدث على الذات ، بل انها أمر اعتباري لغوي قد يتصادف أن يطابق المدلول الخارجي أو لا يطابقه .

بعد هذا العرض يتضح لدينا أن لدينا أمورا ثلاثة هي :

١ ــ الدلالة وهي أمر خارج عن التركيب اللغوي يتمثل في احداث أو ردود افعال توجد عند النطق بالتركيب اللغوي وترتبط ذهنيا به ، على النحو الذي يبنه علماء النفس وعلماء الدلالة (Semantics) عند مناقشتهم للرمز اللغوي .

٢ ــ العلاقة بين أجزاء التركيب اللغوي وهي اعتبار عقلي ، أو اسم يطلقه عالم اللغة على الرابطة القائمة بين جزء من التركيب وجزء آخر ، وقد تسمى هذه العلاقة اسنادا أو ظرفية أو حالية الخ . وقد تسمى العلاقة « أ » والعلاقة « ب » والعلاقة « حـ » الخ وهذه هي التي عبرنا فيها احيانا باسم « الوظيفة الاعرابية » .

٣ ــ العلاقة : وهي الصفة المادية التي توجد عند وجود علاقة معينة وتنعدم عند انعدامها .

وهذا النوع من التحليل لا يعني اهمال دلالة التركيب اللغوي ، بل فصل دراسة الاعتبارات الدلالية عن دراسة الاعتبارات التركيبية في المرحلة الاولى من مراحل الدراسة وهي دراسة التركيب . ويصر اللغويون المحدثون على أن انعدام العنصر الدلالي في الظرف الكلامي يخرج التركيب عن كونه تركيبا لغويا ، ولذا يرون أن دراسة الدلالات جزء مكمل لدراسة التراكيب وان كان منفصلا عنها ضرورة اختلاف طبيعة الدلالة وهي أمر نفسي عن طبيعة التركيب وهي حدث مادي صوتي .

* * *

لنرجع بعد هذه المقدمة الى مناقشات الدكتور :

١ ــ يقول الدكتور ان زعمي بان الدلالة متحدة في الامثلة « ضرب محمدا » و « انضرب محمد » و « ضرب محمد » لا يختلف عن مزاعم النحاة من أن نائب الفاعل مفعول به في الاصل[٣] ·

والفرق شاسع بين النحاة وبيننا ، فنحن لا نقول اطلاقا بان نائب الفاعل النحوى هو المفعول النحوي في الاصل ، ( وأصر هنا على الصفة « النحوي » ) ، لان نيابة الفاعل النحوية والمفعولية النحوية ليست من عناصر الدلالة الخارجية بل من عناصر التركيب اللغوي · ودليل ذلك الفرق التركيبي بين العلاقتين حيث يؤنث الفعل مع نائب الفاعل ولا يؤنث مع المفعول ·

هذا من الناحية التركيبية ·

أما من الناحية الدلالية وهي من عناصر الظرف الخارجي لا التركيب اللغوي فليس ثمة أدنى شك في ان نائب الفاعل والفاعل الذي فعله على صيغة « انفعل » مثل « انضرب محمد » والمفعول ، أمر واحد ، فالحدث واقع على الذات سواء كان الاسم الذي يشير اليها في التركيب اللغوي مرفوعا ( لانه نائب فاعل أو فاعل لفعل المطاوعة ) أو منصوبا ( لانه مفعول ) وسواء كان الفعل مبنيا للمعلوم أو مبنيا للمجهول ·

وقد قلنا في ص ٢٤٢ من كتابنا المشار اليه ( لعل من سوء الحظ أن أطلق النحاة لفظ « فاعل » على الركن الاسمي في الجملة الفعلية ، فقد أضاف ما في هذه الكلمة من دلالة قاموسية صعوبة لا لزوم لها » ·

وهذه الصعوبة هي حمل القارىء حملا على الخلط بين الدلالة الخارجيه وبين العلاقة التركيبية ــ أو الوظيفة الاعرابية ــ التي علامتها رفع الاسم وتأخره عن الفعل وتأنيثه لتأنيث الاسم الخ ·

٢ ــ قال الدكتور في نفس الصفحة بأني « لم أوفق الى ادراك ان الفاعل في الجملة ليس هو الفاعل الحقيقي بل هو ما يسند اليه فعل » وان نائب الفاعل « مسند اليه وان لم يكن هو المحدث للفعل » ·

وهذه دعوى تدحضها المناقشة التي يثبتها ويدمغها النص الذي ورد في كتابي ص ٢٣٦ حيث قررنا أن « الجملة الفعلية تتكون من ركني اسناد أحدهما ركن فعلي والاخر ركن اسمي » ثم استطردنا قائلين « ويكون الركن الاسمي في الحالة الاولى فاعلا أما في الحالة الثانية فيكون نائب فاعل » · والنص الذي ورد في صفحة ٢٤٤ والذي يقرر : « أليس الفاعل أو نائب الفاعل سوى أحد ركني الجملة الفعلية ·· واذا كان للنحاة بعض الحق في التفريق بين المبتدأ والفاعل فان الاختلاف بين الفاعل ونائب الفاعل أمر دلالي ولا غير · أما الاختلاف الحقيقي فبين صيغتي الفعل الخ » ·

ترى هل لا يزال الدكتور مصرا على اني « لم أوفق الى ادراك أن نائب الفاعل مسند اليه وان لم يكن هو المحدث للفعل » ؟ ؟ ·

٣ ــ يرى الدكتور ان التمثيل بالجملة « ضرب محمداً » ( يعني ضرب فلان محمداً ) « تمثيل ضعيف كما يرى القارىء » وهذه دعوى ترك الحكم عليها لانطباعه هو وانطباع القارىء معه ٠ وأود أن انتقل بالحكم من مجرد الانطباع الى مقياس آخر أكثر دقة ٠

المثال الجيد هو ما يتحقق فيه أمران ، الصواب وابراز الصفة التي ورد المثال لابرازها على أوضح وجه ٠

أما الصواب فلا شك فيه فالجملة « ضرب محمداً » ترد جوابا لسؤال « ماذا فعل علي ؟ » مثلا ، واذا كان من الصواب ورود الجملة في مثل هذا الظرف فليس هناك ظل من الضعف في استعمالها مثالا ٠

أما ابراز الصفة التي ورد المثال لابرازها ، فالمثال بهذا الوضع أصلح من المثال الذي يقترحه ضمنا أي « ضرب فلان محمداً » ٠ وذلك لاننا قد سقناه لنقارن بين مواضع اعرابية ثلاثة ناقشها النحاة موضع المفعول وموضع الفاعل وموضع نائب الفاعل ، ولمقارنة هذه المواضع الثلاثة سقنا ثلاثة أمثلة هي :

« ضرب محمداً » و « انضرب محمد » و « ضرب محمد » ووجه الافضلية في وضع الامثلة على هذا الشكل تكونها جميعا من فعل من نفس المادة ولكنه مختلف الصيغة ومن اسم واحد ولكنه مختلف العلامة الاعرابية ٠ والامثلة هذه تحصر موضوع النقاش في علاقة الفعل بالاسم « محمد » في الحالات الثلاثة ٠ أما لو قلنا « ضرب علي محمداً » كما يريد الدكتور لقدمنا للقارىء فعلا ذا علاقتين علاقته بالفاعل علي وعلاقته بالمفعول محمد ولكان من المحتمل ان يشغل به الوهم الى الخلط بين العلاقتين ٠

من أجل القصد الى هذه الدقة في حصر موضع النقاش اتينا بالجملة « ضرب محمداً » دون ذكر الفاعل ، وهو صنيع ان اتصف بشيء فلن يتصف قطعا بالضعف ٠

٤ ــ يقول الدكتور باني لم أوفق الى الصواب حين قررت « عدم وجود تلازم بين العلامة الاعرابية وبين الحاجة الى تمييز المعاني المركبة » ٠

وقد وردت هذه العبارة في مناقشة النحاة الذين « يعللون الاعراب بحاجة الكلمة الى الحالات الاعرابية لتحديد معناها »(٤) ولهذا يقول بان ضمة « محمد » في الجملة « ضرب محمد » وفتحته في الجملة « ضرب محمداً » هي التي ميزت حالة المفعولية عن حالة الفاعلية ٠ وقد استطردت في مناقشتهم حتى انتهيت في ص ٣٣ الى ان « هناك بعض التركيبات التي تحتاج الى التفريق في الدلالة بين بعضها وبعض مع عدم اختلاف علامات الاعراب ( مثل الحال والتمييز وهما منصوبان مع اختلاف دلالتهما ) وان هناك

بعض الحالات الاعرابية المتحدة في الدلالة مع اختلاف علامات الاعراب ( مثل نائب الفاعل والمفعول ) ٠

لدينا اذن معان مختلفة مع اتحاد العلامة الاعرابية ومعان متحدة مع اختلاف العلامة الاعرابية ٠ هل يشك في ذلك أحد ؟!

كيف جانبني التوفيق اذن عندما قررت « عدم وجود تلازم بين وجود العلامة الاعرابية وبين الحاجة لتمييز المعاني المركبة » وأعيد مرة أخرى لفظ « المعاني » أي الدلالات الخارجية لا الوظائف الاعرابية ( العلاقات ) التي هي جزء من التركيب اللغوي ٠

ويقول الدكتور « وأكبر الظن ان التلازم المشار اليه متحقق ، فالضمة في الفاعل أو ما يسمونه بنائب الفاعل تدل على ما بينها وبين الفعل من اسناد »(٥) وانا لا اظن هذا أكبر الظن بل أقطع به ، ولكنني الح مرة ثانية على أن العلامة هنا دليل على الوظيفة الاعرابية وهي الاسناد ـ والتلازم متحقق بين الوظيفة والعلامة ـ ولكنها ليست دليلا على المعنى الخارجي أي وقوع الحدث من الاسم أو عدم وقوعه عليه ٠

٦ ـ ويقول الدكتور « المبتدأ هو المسند اليه في الجملة الاسمية نحو « خالد أخوك » ومحمد في البيت ٠ وليس من المبتدأ ما كان مسندا اليه في جملة فعلية كما في قولنا « محمد سافر » وكما زعم الدكتور عبدالرحمن أيضا وهو بصدد التفريق من نحو قولهم « محمد ضرب » و « ضرب محمد » من أن الوظيفة اللغوية قد اختلفت من مبتدأ الى فاعل مع اتحاد العلامة الاعرابية » ٠ ثم ينقل عن كتابي قولي « واذا كان من الصحيح أن المفعول قد تميز عن الفاعل بالحالة الاعرابية فان المبتدأ قد تميز عن الفاعل بمكانه في التركيب » ويعلق قائلا بأن « المبتدأ لا يتميز عن الفاعل بمكانه وانما يتميز بما هو أعمق وأدق ، يتميز بان يتصف بالمسند اتصافا ثابتا ، ولا يتحقق هذا الا اذا كان المسند اسما جامدا أو وصفا والا على الدوام ، وان الفاعل ـ وهو مسند اليه أيضا ـ انما يتصف بالمسند اتصافا متجددا ولا يتحقق هذا الا يكون المسند فعلا أو وصفا والا على التجدد » ٠

أما فيما يتعلق بزعمي الذي أشار اليه فأود التنبيه الى أن كتابي يهدف الى تلخيص آراء النحاة ونقدها ، لا الى ابتكار بديل للقواعد العربية وهو عمل أرجو أن أوفق يوما ما للمساهمة فيه ٠ ومن أجل هذا قبلت التفريق الذي قال به النحاة وهو تفريق كما قررت يقوم على اختلاف شكلي ـ أي في تركيب الجملة ـ بين النوعين ، يتمثل في تقدم الفعل على الاسم في حالة كونه فاعلا وتأخره عنه في حالة كونه مبتدأ ٠ وعلى فرض قبول هذا فان الوظيفة اللغوية ( أي الموقع الاعرابي ) قد اختلفت مع اتحاد العلامة الاعرابية وهي الرفع في كل منهما ٠

ولكننا أخذنا على النحاة أمرا آخر لم يفطن اليه الدكتور حيث قلنا بانه قد كان من واجبهم « وقد اتخذوا تقدم الفعل المسند على الاسم المسند اليه أساسا للحكم على نوع الجملة أن يتخذوا نفس الاساس في القول بانواع أخرى من الجمل . وكما يتقدم الفعل المسند على الاسم المسند اليه يتقدم كذلك الوصف المسند والجار والمجرور المسند والظرف المسند على المسند اليه ، فلم لم يقل النحاة بأن كلا من هذه التركيبات نوع من أنواع الجملة يختلف عن قرينه من الانواع التي تتأخر فيها هذه الاركان »(٦) .

ثم قلنا في موضع آخر « اما تفريق النحاة بين الفاعل والمبتدأ فأساسه كما ذكرنا من قبل موضع ركن الاسناد الاسمي بالنسبة لركن الاسناد الفعلي ، فهو مبتدأ اذا تقدم عليه فاعل اذا تأخر عنه . وقد سبق أن قلنا بانه لا مانع لدينا من اتخاذ الموضع الذي تمثله الكلمات وسيلة للتفريق بين تركيب وآخر ، على أن يطبق ذلك في جميع الحالات . أما أن يقصر النحاة ذلك على الفاعل دون المبتدأ ، فيقولون بجواز تأخير المبتدأ ولا يقولون بجواز تقديم الفاعل فأمر مرفوض رفضا منهجيا لاختلاف مقياس الحكم على أحد قسميه عنه على القسم الآخر »(٧) .

لسنا اذن على اتفاق مع النحاة على طول الخط . ولكن لن يضيرنا ان يفرقوا بين جملة الفاعل وجملة المبتدأ بعنصر الموضع من التركيب اذا اتخذ هذا العنصر أساسا في كل الحالات . وما دامت هذه الاعتبارات — أي كون الاسم فاعلا مقدما أو مبتدأ — لا تغير من واقع التركيب بشيء ، فليس يعنينا الاسم الذي يختاره الباحث .

أما تعليق الدكتور الذي يقرر بان المبتدأ يتميز عن الفاعل بانه يتصف بالمسند اتصافا ثابتا وان الفاعل يتصف به اتصافا متجددا ، فانه تورط في عنصر الدلالة الخارجية نحرص كل الحرص على تجنبه . ولنلخص راي الدكتور في امثلة :

١ — « خالد أخوك » مبتدأ وخبر لان المسند اسم جامد .
٢ — « محمد في البيت » مبتدأ وخبر لان المسند جار ومجرور .

ولكن هل وجود « محمد » في البيت أمر ثابت لا يتجدد ؟ أو لا يجوز له أن يخرج من البيت الى مكان آخر ثم يعود الى البيت ؟ .

٣ — أ — « محمد سافر » فعل وفاعل لانه « ليس من المبتدأ ما كان مسندا اليه في جملة أو ب — « سافر محمد » فعلية مثل محمد سافر » .

وهذه الامثلة الثلاثة منقولة عن الدكتور وسنورد عددا من الامثلة التي نقيسها على ما قاله في التمييز بين المبتدأ أو الفاعل .

٤ — « أبيض محمد » لابد أن تكون جملة من مبتدأ وخبر لان البياض وصف ثابت لا يتجدد .

٥ ـ « مات محمد » لابد أن تكون مبتدأ وخبرا لان الموت أمر لا يتجدد ·

٦ ـ « محمد كاتب » لا ندري ان كانت الجملة مبتدأ وخبرا أو فعلا وفاعلا ( أو بالادق وصفا وفاعلا ) لانه من المحتمل ان يكون اسم الفاعل قد أشار لصفة ثانية في محمد كما يحتمل أن يكون قد اشار بصفة منقطعة ·

٧ ـ محمد طويل الذراع ـ مبتدأ وخبر لان المسند يدل على صفة ثابتة ·

٨ ـ محمد كاتب الدرس ـ وصف وفاعل لان المسند يدل على صفة غير ثابتة ·

هل يرى القاريء الصعوبة التي يفضي اليها هذا الاعتبار الدلالي ، وهل يرى مبررا لاعتبار المثال رقم (٨) مختلفا في تركيبه عن المثال رقم (٧) أو ان المثال رقم (٥) مختلف عن المثال ( ٣ ـ ب ) ·

٩ ـ يأخذ علي الدكتور ان قلت بأن « يا عبدالله » ليست جملة فعلية ولا اسمية وانها من الجمل غير الاسنادية · وهو يتفق معي مشكورا في مخالفة القدماء في قولهم بانها من الجمل الفعلية لا « يا » عند النحاة بمعنى « أدعو » ، ولكنه يختلف معي في اعتبارها جملة ·

وانا لا يضيرني ان نسمى هذا التعبير جملة أو لا نسميه · وكل ما ابغي هو أن أفرق بين هذا التركيب وبين التركيب الاسنادي في مثل « محمد نائم » و « مسافر علي » · ولكني كما ذكرت من قبل قصدت الى تلخيص وجهة نظر النحاة ونقدها · وما دمت قد قبلت تقسيمهم الثلاثي « كلمه كلم كلام » فلابد من وضع « يا عبدالله » في احد هذه الاقسام ، وهي ليست كلمة ولا كلما بل هي كلام · ولم يقسم النحاة الكلام الى جمل وغير جمل بل اعتبروا كل كلام جملة وقالوا في تعريف الجملة بأنها ما افادت فائدة تامة · وليس من شك في ان « يا عبدالله » قد افادت فائدة تامة ومن ثم لا معدى لنا عن اعتبارها من الجمل اذا التزمنا بتقسيم النحاة وتعريفاتهم، ولا مانع من ذلك ·

أما الخطأ الذي نأخذه على النحاة فهو اعتبارهم « يا عبدالله » اسنادا وهو ما يوافقني الدكتور عليه ·

تلك هي المآخذ التي اوردها الدكتور علي أرجو ان اكون قد وفقت في جلائها ان كان التوفيق قد خانني مرارا كثيرة في كتابي الذى اشار الدكتور اليه · وانا اذ اشكر للدكتور جهوده ارجو ان اقرأ تعليقاته على بعض القضايا التي وردت في هذا الكتاب والتي اعتبرها اكثر جوهرية من الامور التي اخذها علي ·

---

(١) « في النحو العربي » لمهدي المخزومي ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤ ص ٧٢ ·

(٢) هل تراه يقصد الفاعل في مثل الجملة « مات محمد » و « انضرب علي » ونائب

الفاعل في « ضرب محمد » أم يقصد نائب الفاعل فقط في الجملة الاخيرة كما يشهد مثاله . وهذا نقص كما رأي القاريء وعلى أية حال فالفاعل ونائب الفاعل في هذه الامثلة « لا يقدم بالفعل » بل يقدم به الفعل .

(٣) ص ٧٢ .

(٤) دراسات نقدية ص ٣٠ .

(٥) ص ٧٣ « في النحو العربي » .

(٦) دراسات نقدية ص ٢٣٢ .

(٧) ص ٢٤٢ نفس المرجع .

(٨) ص ٥٣ « في النحو العربي » .

